مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 14 / العـدد: 01 (2024)، ص 201-213

الكتابة التاريخية بين الحقيقة والتخييل

Historical Writing: Between Realism and Fiction

عميرة نوال*	بورويس كريمة
جامعة محمد الصديق بن يحيى، مخبر اللغة وتحليل الخطاب- جيجل (الجزائر)	جامعة محمد الصديق بن يحيى، مخبر اللغة وتحليل الخطاب - جيجل (الجزائر)
nournawal.doctorat2021@gmail.com	karima.bourouis@univ-jijel.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/07 تاريخ القبول 2024/01/23

ملخص:

إن انفتاح الحقول المعرفية أدى إلى ميلاد خطاب سردي هجين ناتج عن تعدد الخطابات داخل الخطاب السردي الذي يشتمل على عدة عناصر تميزه خاصة عنصر التخييل، ولأن الخطاب السردي متعدد المنابع والمعينات فهو يتقاطع مع عدة خطابات أهمها الخطاب التاريخي، فالسارد يبني خطابه على مرجعيات متعددة أهمها التاريخ ما جعل الخطابين يتعالقان، خاصة وأن تقنية السرد هي أهم ركيزة في الكتابة التاريخية.

فالمؤرخ في عملية الكتابة لا يعتمد على صياغة المادة التاريخية صياغة جافة موضوعية، وإنما قد يلجأ إلى أدوات التخييل لإضفاء صبغة جمالية عليها فتبرز مهارته الإبداعية وذوقه الفني لتنصهر الحقيقة التاريخية مع المتخيل التاريخي الإبداعي، وهذا ما اصطلح عليه بالتخييل التاريخي.

كلمات مفتاحية : الكتابة التاريخية، المؤرخ، الخطاب السردي، الخطاب التاريخي، التخييل التاريخي.

Abstract:

The openness of the cognitive fields has led to the creation of a hybrid narrative discourse as an outcome of the multiplicity of discourses within the narrative discourse which includes several specific elements, especially the element of fiction. Because the narrative discourse has multiple sources and determinants, it intersects with several discourses, the most important of which is the historical discourse. The narrator builds his discourse on multiple references, the most important of which is history. This is what made the two discourses intertwine, especially since the narration technique is the most important pillar in historical writing.

The historian, in the process of writing, does not rely on an unemotional, objective formulation of the historical material. Rather, he resorts to fiction tools to give it an aesthetic

* المؤلف المرسل: عميرة نوال

look. So his creative skill and artistic taste stand out making the historical truth fuse with the creative historical fiction. This is what is termed historical fiction.

Keywords: Historical Writing; Historian; Narrative Discourse; Historical Discourse; Historical Fiction

1. مقدمة:

شغل الخطاب السردي حيزا كبيرا في حقل الدراسات الأدبية والنقدية المعاصرة، لذلك فقد سخرت جهود كثيرة على مدى العقود المتأخرة لدراسته والإحاطة بتقنياته وأشكاله ومضامينه وكل ما يتعلق به، وبهذا أصبح علم السرد أهم إنجازات البحث في القرن الماضي، فكان ميدانا خصبا لاشتغال النقاد والباحثين، خاصة في ظل الانفتاح على الحقول المعرفية الأخرى.

ولعل أهم سبب لهذا الانفتاح هو شيوع ظاهرة تعدد الخطابات داخل الخطاب السردي، فالخطاب السردي هو خطاب هجين متعدد المستويات ومتنوع الأشكال يغترف من معينات عدة، ورغم أن عنصر التخييل هو الخاصية البنيوية الأبرز للسرد، إلا أنه يشتمل على عناصر أخرى تتيح له فرصة المشاركة والالتقاء مع خطابات أخرى أهمها الخطاب التاريخي، فالسارد لا ينطلق من العدم في بناء خطابه وإنما يؤسس بنية خطابه وعناصرها على مرجعيات متعددة أهمها التاريخ.

سنحاول إذن في هذه الدراسة الموجزة أن نسلط الضوء على العلاقة القائمة بين الخطاب السردي والخطاب التاريخي من خلال فحص مدونات تاريخية تتجلى فيها ظاهرة التداخل مع بروز جدي لهذه الإشكالية .

2. الإشكالية:

هكذا يتجلى وجه من وجوه التشابه بين التاريخ وبين الرواية بوصفها الشكل السردي الأكثر تلبّسا بالصفة التاريخية، فحيث تنبني الكتابة التاريخية على الوقائع والأحداث الماضية التي يُعتقد أو يُزعم أنها وقعت بالفعل، تقوم الكتابة الروائية على تخيل أحداث ووقائع لم تحدث بالفعل لكنها ممكنة أو متوقعة الحدوث، وفي كلا المجالين تتخذ الكتابة شكلا سرديا، إذن فحيث يحضر التاريخ يأخذ السرد دور المنظم للوقائع والمؤلف لها، وحين يحضر السرد يقدم التاريخ نفسه كخلفية مرجعية تسند المتخيّل وتغذيه، وبهذا لا يمكن الحديث عن الرواية دون الإشارة إلى مرجعيتها التاريخية، كما لا يمكن تخليص التاريخ من مكوّن السردية .

إن التعالق القائم بين الخطاب السردي والخطاب التاريخي يدفع بنا للتساؤل حول إشكاليات عدة هي من إفراز هذا التعالق منها حدود السردي/ التخييلي والتاريخي/ التوثيقي، أي تجليات الخطاب السردي داخل الخطاب التاريخي، وفي بعد أكثر تعميقا لظاهرة التداخل هذه سنتساءل حول الحقيقة بوصفها عصب الكتابة التاريخية في علاقتها بالخيال/ السرد بوصفه الشكل الذي تقدم فيه تلك الحقيقة؛ هل الحقيقة التي تنشدها الكتابة التاريخية يمكنها أن تصمد أمام فنية الشكل التي تنسج في إطاره؟ هل لإعادة بناء التاريخ من خلال الربط بين الوقائع

والتأليف بين الأحداث وموقعتها زمنيا لا يمر من دون تحيزات وأهواء الذات الكاتبة المؤرخة التي تصبح ذاتا ساردة بمجرد توفير حبكة للأحداث؟

3. السرد والتاريخ:

إن العلاقة بين السرد والتاريخ هي علاقة واضحة ولكنها شائكة، يكفي أن نعرف بأن تقنية السرد هي إحدى ركائز الكتابة التاريخية، وهذا يسمح لنا بالقول: بأنهما شكلان خطابيان متلازمان "نبعا من معين سردي واحد: الأساطير والملاحم... قبل أن ينشدا الانفصال أحدهما عن الآخر، حين كانت الرواية والتاريخ معا يشتغلان بتسجيل الوقائع والأحداث أو يفترضان وقوع الأحداث والوقائع في الماضي البعيد، على نحو يستند إلى ميثاق واحد في تقبل عملهما، ثم صار التاريخ بعد ذلك كما يلح ابن خلدون يطلب ما وقع فعلا وكما وقع، ويجتهد في طريقهما، وصارت الرواية تطلب ما يمكن أن يقع افتراضا واحتمالا وتبدع في أساليبهما."[1]

ومما يتمم علاقة التداخل بين التاريخ والسرد وجود أنماط مختلفة للقول تجمع بين بلاغة السرد وتوثيقية التاريخ منها "الخبر" الذي يجعله فيصل دراج نمطا قوليا مرجعيا يجمع بين الخطاب الروائي وبين الخطاب التاريخي؛ فهو لا يتردد في القول: بأن الرواية والتاريخ " مصطلحان تاريخيان لغويان، رضعا من ثدي واحد هو الخبر، وهما قائمان على التأثير والتأثر ببعضهما[2] .

4. التخييل التاريخي:

يعتبر التاريخ وعاء حافظا للحقائق وخازنا أمينا للذكريات الجمعية وخلاصة موثقة لحضارات وثقافات عريقة، فعبره يتم نقل التجارب الإنسانية للمجتمعات من جيل إلى جيل، ومن خلاله تُعرف الأحداث الكبرى ذات التأثير المستمر والخالد على مستوى الوعي الجمعي للأمم.

ولئن كانت المادة التاريخية تقوم على الحقائق والوقائع ، فإن هذه المادة تتطلب شكلا لغويا تنتقل فيه من مستوى الغياب إلى مستوى الحضور أي من الماضي إلى الحاضر عبر فعل الاستعادة، ثم إن المادة التاريخية تكون غالبا عبارة عن أحداث متفرقة تحتاج إلى ربط وإلى حبك وإلى ملء للفراغات وتفسير للانقطاعات، كل هذا يتم توفيره من خلال فعل السرد الذي يتحول هنا إلى فعل أدبي في طبيعته تخييلي في أهدافه تاريخي في وظيفته، وهذا ما أتاح للخطاب الأدبي أن يكتسح الخطاب التاريخي بكل قوة، يتجلى هذا في غير ما مفصل من مفاصله، ومع أن التداخل بين الخطابين ظاهرة عريقة ومتجدرة في تاريخ المعرفة الإنسانية إلا أنها عرفت مؤخرا مزيدا من الإضاءة والتعميق خصوصا في ظل النجاحات التوسعية التي أحدثتها مباحث تحليل الخطاب في ساحة الدراسات البينية والثقافية.

ولعل أحدث تصور أنتجه البحث في نتائج التلاقح بين السرد والتاريخ يتمظهر من خلال مصطلح "التخييل التاريخي" الذي يتوازى في دلالته مع عبارة "رواية التاريخ"، هذا المصطلح الجديد الذي ظهر على الساحة الأدبية خاصة مع تطور الفكر النقدي ما بعد الحداثي وما بعد الكولونيالي، وما جره ذلك من انفتاح الحقول

المعرفية على بعضها البعض، وإذ نتحدث هنا عن رواية التاريخ فالقصد ليس الأحداث الماضية فقط بل إن التاريخ يمتد إلى الحاضر والمستقبل، والإنسان الواعي هو من يستطيع أن يقيم جسرا من ماضيه يعبر به إلى حاضره لبناء مستقبله، إن مصطلح رواية التاريخ أو ما اصطلح عليه بـ "التخييل التاريخي" فرض نفسه أمام السارد المبدع والمؤرخ الموثق، لأن مجال الخيال مفتوح أمام الأول الذي يجد باب التخييل والإضافة والتعديل مفتوحا أمامه على مصراعيه، ولكنه محدود أمام الثاني (المؤرخ) الذي تكمن مهمته الأساسية في توثيق الحقائق التاريخية بعيدا عن كل التحيزات والأهواء والتصورات الفكرية الخاصة.

إن المؤرخ عند عملية الكتابة، قد لا يكتفي بتوثيق الأحداث وصياغتها صياغة جافة، وإنما يخضعها لاختيارات واختبارات بعضها علمي موضوعي وبعضها الآخر انطباعي ذاتي، فحيث تسكت الحقيقة أو تختفي أو تلتبس بغيرها وكثيرا ما يحصل ذلك، يحضر فعل التخييل متخذا مظاهر شتى منها التخمين أو الافتراض أو التصور المبني على احتمالات، وباستعارة المؤرخ لأدوات التخييل يكون قد أعلن ضمنا عن دخول أسلوبية إبداعية تتيح له فرض خياراته الخاصة وإحلالها محل الحقيقة التاريخية مع إقصاء ما يتعارض معها بفتح المجال أمام ذوقه الفني الإبداعي، وهنا تتماهى الواقعة التاريخية مع المتخيل التاريخي، ما يضعنا في مواجهة جدلية التاريخي والخيالي في الكتابة التاريخية وهي الإشكالية التي يبرزها مصطلح " التخييل التاريخي" الذي يتجلى في ذلك النوع من الكتابة الذي يمزج بين مكونات ذات ملامح أدبية سردية تشع جمالية، وبين عناصر ذات مرجعية تاريخية معرفية.

بهذا يتضح لنا أن مصطلح "التخيل التاريخي"لا يحيل إلى الحقائق التاريخية في طبيعتها المجردة والنقية بل يشير إليها على أنها مادة خام يتم استخدامها في إعادة بناء التاريخ، فهو يجمع في دلالته بين حقلي المعرفة والإبداع معا، تماما كما عرفه عبد الله إبراهيم: "هو المادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية، فالتخيل التاريخي لا يحيل على حقائق الماضي ولا يقررها، ولا يروج لها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسرة لأحداثه، وهو من نتاج العلاقة المتفاعلة بين السرد المعزز بالخيال والتاريخ المدعم بالوقائع، لكنه تركيب ثالث مختلف عنهما"[(3)].

لقد استطاع التاريخ التحرر من قيود التوثيق والمرجع، وصبغ بصبغة فنية جمالية، وهذا ما سمح بإعادة تفسير وتأويل الأحداث التاريخية، لأن السارد يقوم بتطويع التاريخ وفق موجهات أسلوبية وبلاغية وبالتالي تحريره من السياق ووصله بتأويلاته التي تهم الحاضر والمستقبل.

5. سرد التاريخ/ رواية التاريخ:

ورغم أن مصطلح "التخيل التاريخي"قد فرض نفسه، إلا أن هناك من دعا إلى اعتماد مصطلحات أخرى كالتمثيل التاريخي ورواية التاريخ، وكلها مصطلحات تتفق في اعتماد التاريخ مادتها المسرودة.

إن التخيل التاريخي يقع في المنطقة الفاصلة بين التاريخ والخيال، هذا ما أكده عبد الله إبراهيم في قوله: "يتنزل التخيل التاريخي في منطقة التخوم الفاصلة/ الواصلة بين التاريخي والخيالي، فينشأ في منطقة حرة ذابت

مكوناتها بعضها في بعض وكونت تشكيلا جديدا متنوع العناصر، ولطالما نظر إلى التخيلات التاريخية على أنها منشطرة بين صيغتين كبيرتين من صيغ التعبير الموضوعية والذاتية، فهي نصوص أعيد حبك موادها التاريخية، فامتثلت لشروط الخطاب الأدبي وانفصلت عن سياقاتها الحقيقية، ثم اندرجت في سياقات مجازية، فابتكار حبكة للمادة التاريخية هو الذي يحيلها إلى مادة سردية وما الحبكة إلا استنباط ناظم للأحداث المتناثرة في إطار سردي محدد المعالم..."[4]

أما بول ريكور فقد استخدم مصطلح الهوية السردية، التي تعني نقطة الالتقاء والتقاطع بين التاريخ والسرد، إذ يرى أن الهوية السردية هي "البؤرة التي يقع فيها التبادل والتمازج والتقاطع والتشابك بين التاريخ والخيال بواسطة السرد، فينتج عن ذلك تشكيل جديد يكون قادرا على التعبير عن حياة الإنسان بأفضل مما يعبر عنه التاريخ وحده أو السرد الأدبي بذاته"[5]، كما أشار ريكور إلى العلاقة بين السرد والتاريخ انطلاقا من فهم الذات الذي يقوم على التخيلات التاريخية" لأن فهم الذات هو عملية تأويل، وتأويل الذات بدوره يجد في السرد واسطة ممتازة لذلك فهو يفضله على بقية الإشارات والعلامات والرموز، والسرد يقتبس من التاريخ بقدر ما يقتبس من القصص الخيالية، جاعلا من تاريخ الحياة قصة خيالية أو قصة تاريخية، شابكا أسلوب العمل التاريخي الحقيقي للسير بالأسلوب الروائي للسير الذاتية الخيالية."[6]

كما "حدد واسيني الأعرج مجال التاريخ ومجال التخيل، فالتاريخ هو المادة المنجزة التي مر عليها زمن يضمن حدود المسافة التأملية بينه وبين تلك المادة، أما المتخيل فهو المادة السردية المنجزة التي تنشأ من خلال العلاقة الخلاقة مع حدث ما وتعطيه امتدادات كبيرة في الزمان والمكان وتخرجه من الوثوقية إلى النسبية."[7]

إن سرد التاريخ يحرر المادة التاريخية من صفتها التوثيقية، فيخضعها لآليات السرد المختلفة، بما يكسبها جمالية فنية وأدبية، وهذا جوهر التخييل الأدبي.

6. تجليات الخطاب السردي في الكتابة التاريخية:

كما أسلفنا الذكر، قد يلجأ المؤرخ إلى توظيف تقنيات السرد المختلفة في تأريخاته، تماما كما يفعل الأديب والسارد متقصين الحقائق التاريخية وفي الوقت نفسه متحرين الجمالية الفنية، وسنحاول في هذه الدراسة التطبيقية أن نقف على مواطن التخيل الأدبي في نماذج مختارة من كتب بعض مؤرخي العصور القديمة، كما سنحاول معرفة كيف ساهم توظيف هذه التقنيات السردية في تحويل التاريخ من حقيقة واقعة جافة إلى متخيلة فنية.

1.6 الزمن:

لكل حدث حيز زماني، وكل ما يروى يأتي مقرونا بزمن محدد، فالزمن "عنصر أساسي في النصوص الحكائية بشكل عام لاعتبارها تشكل التعبير القائم على سرد أحداث تقع في الزمن فقط، ولأنها كذلك فعل تلفظي يخضع للأحداث والوقائع المروية لتوالي الزمن[8]"، أما بول ريكور فيرى أن الزمن "يغدو ذا طابع إنساني حين يتمفصل مع السرد"[9]، إنه"الطريقة التي ينظم بها السارد طريقة الحكي وتفاصيل الخطاب[10]".

وكما أن الزمن هو عنصر محوري في بنية النص السردي فهو أيضا يحتل مكانة جوهرية في بنية النص التاريخي لأنه يعتمد عموما على التسلسل الزمني للأحداث ضمانا لتتابعها وتوفيرا لعنصر الحبكة فيها، و"بذلك يعطي وظيفة خاصة لهذا الخطاب تتجلى في تقديم العبرة والاستفادة من أخبار ما مضى."[11]

يخضع الزمن في النص التاريخي لتوظيفات مشابهة ـ في كثير من الأحيان ـ للتوظيفات السردية الجمالية، ولئن تراوحت الغايات التداولية للخطابين بين الأبعاد الفنية والأبعاد المعرفية فإن تجليات الزمن وتقنياته تبقى ذات طبيعة بنيوية واحدة، ومن التقنيات الزمنية التي نعثر عليها في نماذجنا التاريخية المختارة:

1.1.6 الاسترجاع

يلجأ السارد/ المؤرخ إلى تقنية الاسترجاع في عمله السردي سيرا باتجاه الماضي انطلاقا من الحاضر ليسترجع ويستذكر أحداثا حدثت من قبل، وبالرجوع إلى العبر وديوان المبتدأ والخبر نجد في قوله: "قد كان تقدم لنا أن نصير الدين جقري كان نائب الأتابك زنكي بالموصل وقت ألب أرسلان ابن السلطان محمود آخر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة طمعا في الملك لغيبة الأتابك، فرجع من غيبته في حصار البيرة وقدم مكانه زين الدين علي بن كمستكين بقلعة الموصل فلم يزل بها بقية أيام الأتابك..."[12]، لقد أوقف ابن خلدون زمن روايته ليعود إلى الوراء ساردا قصة نصير الدين جقري مسترجعا الأحداث التي وقعت فيها، تتجلى هذه التقنية أيضا في قوله: "لقد تقدم آنفا ذكر الخلاف الذي في قضاعة هل هم لحمير أم لعدنان، ونقلنا الحجاج لكلا المذهبين وأتينا بذكر أنسابهم تالية حمير ترجيحا للقول بأنهم منهم وعلى هذا فقيل هو قضاعة ابن مالك ابن حمير، وقال ابن الكلبي: قضاعة ابن مالك ابن عمرو ابن مرة ابن زيد ابن مالك ابن حمير، وكان قضاعة فيما قال ابن سعيد ملكا على بلاد الشحر، صارت بعده لإبنه الحاف ثم لإبنه مالك(...) ولنذكر الأن تشعب البطون من قضاعة: اتفق النسابون على أن قضاعة ..."[13]

فقبل أن يسهب ابن خلدون في الحديث عن قضاعة، عاد بالزمن إلى حديثه السابق في الاختلاف في نسب قضاعة، ونجد تقنية الاسترجاع أيضا في قول المسعودي في ذكر أسماء ولد علي بن أبي طالب: "الحسن والحسين ومحسن، وأم كلثوم(...)وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن جعفر الطيار استشهد وخلف عليها عونا ومحمد عبد الله، وأن عقب جعفر منها من عبد الله بن جعفر(...)قد أتينا على أنساب آل أبي طالب، ومن أعقب منهم ومصارعهم، وغير ذلك من أخبارهم في كتابنا أخبار الزمان"[14].

يخترق السارد المؤرخ هنا الماضي باحثا عن الحقائق مستعينا بالأدوات المعرفية المطلوبة في علم التاريخ كالمراجع والمرويات الموثوقة متحللا من أي قيد تخييلي من شأنه أن يضفي على هذه الحقائق سمة تأويلية، ويتجلى في النص نفسه نظام إحالة توزع على مستويين اثنين مستوى داخلي " قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب" ومستوى خارجي " قد أتينا ... في كتابنا أخبار الزمان"، ومع نظام الإحالة المزدوج هذا يتبدى الزمن كمساحة واسعة للاشتغال التاريخي المتحرك والمنفتح على طبقات الماضي ومحطاته المختلفة.

2.1.6 الاستباق

وهو تقنية سردية يمتد أثرها الدلالي إلى المستقبل، وتعني " إيراد حدث أو الإشارة إليه مسبقا"[15]

يجيء المستقبل في شكل حلم أو توقع أو افتراض أو تخوف أو غير ذلك ليفرض سلطته على لحظة الحكي فيحولها لصالحه، يستعجل السرد الزمن من أجل بلوغ محطة هو يريدها وينشدها لغاية ما، فتتحقق ظاهرة الاستباق لتدفع بوتيرة الأحداث إلى الأمام، وفي كتاب "الاعتبار" يتجلى لنا الاستباق في قول صاحبه..."[16] ومن ذلك أن الفرنج نزلوا على حماه في أزوارها، وفيها زرع مخصب، فضربوا خيامهم في ذلك الزرع وخرج من شيزر جماعة من الحرامية يدورن بعسكر الإفرنج يسرقون منه، فرأوا الخيام في الزرع، فأصبح بعضهم حضر صاحب حماه، وقال: الليلة أحرق عسكر الإفرنج كله، قال: إن فعلت خلعت عليك؟ فعبارة (إن فعلت خلعت عليك) تنبئ عن العاقبة التي ستحدث مستقبلا. يتداخل الخطاب التاريخي مع الخطاب السردي هنا فتلتبس الحقيقة بالتخييل وتتقاطع غايات السرد التاريخي مع خصائص الخطاب السردي في نقطة الزمن فمن حيث أراد المؤرخ السارد أن يقيد الحقيقة التاريخية ويوثقها وجد نفسه ناسجا حبكة متقنة مادتها أحداث موزعة على أزمنة يلتقي فيها ما حدث بالفعل مع لم يحدث بعد لكنه واقع على مستوى الخطاب في شكل استباقي، هكذا يتبدى لنا أن توظيف الخطاب التاريخي للزمن لا يخضع دائما للمعطى الكرونولوجي التتابعي الذي ينسجم مع الحقيقة أيما انسجام، ولا يقدم دائما في صيغة الماضي، وإنما للزمن تمظهراته المستقبلية على مستوى الكتابة التاريخية.

3.1.6 الإضمار:

تقنية تقوم على إسقاط فترة زمانية خالية من حدث يؤثر على سير الأحداث في عملية السرد، كأنها قفز وتجاوز لمراحل في لا تعتبر ضرورية، ومنه ما ورد في كتاب" فيه النكت العصرية " لصاحبه عمارة اليمني: "وكنت في أيامه خائفا منه متعلقا بصحبة أخيه ناصر المسلمين وأحضرني ليلة بساع إلى قاعة البستان من دار الوزارة بعد شهرين من وزارته، فوقع في خاطري منه توهم ولم يزله إلا حسن الإيناس عند الحضور..."[17]، إذ تجاوز المؤرخ الفترة الزمنية المحددة بشهرين منذ بدء الوزارة لخلوها من الأحداث التي تخدم الحقيقة التاريخية التي يرى بأنها تستحق الذكر، والواقع أن تقنية الإضمار هذه تخفي وراءها إشكالية معقدة لا تقل تداعياتها عن التمييز بين ما ينبغي سرده وإدخاله سجل التاريخ وبين الأحداث والوقائع التي يعتبرها المؤرخ السارد هامشية لا يناسبها إلا الإضمار والحجب.

ومن الإضمار ما ورد في المروج: "(...) واتصلت ولايته بأهل المدينة، فاجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلى الله عليه سلم، وضجوا إلى الله ولاذوا بقبر النبي ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم العسف..."[18]، كما نلمس الإضمار في كتاب" الخبر عن دولة التتر" لابن خلدون: "وظهرت الغز من الترك، خرجوا من مفازة الصين، والملك فيهم في بني سلجوق وسلطانهم طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق، تغلب على دولة بني سبكتين الوارثين لملك بني سامان وعلى دولة بني بويه بالعراق، وعلى كرسي الخلافة ببغداد، وكان كرسيهم بغزنة، وأعمالهم خرسان وما وراء النهر والعراقان، وامتد الملك فيهم نحو مائتي سنة، واستقر الملك آخرها في ما وراء

النهر بخوارزم لبني خوارزم شاه من مواليهم، ثم كان ظهر دولة الططر واستولى جينكيزخان على ما راء النهر من بني خوارزم شاه..." [19]، فابن خلدون تجاوز الفترة التي قامت فيها دولة الغز المقدرة بمائتي عام، واكتفى بالإشارة إليها دون تفصيل أحداثها. إن استغلال تقنية الإضمار على مستوى الكتابة التاريخية لا يكون له نفس الأبعاد و الغايات ولا المخرجات التي تتمتع به الكتابة الروائية، فإذا كان السارد الروائي يلجأ إلى الإضمار لدواع تنظيمية فنية تخص الحبكة والبناء النصي فإن السارد المؤرخ يمارسه لدواع عدة مختلفة منها غياب الحقيقة أو تعذر إثباتها ومنها أيضا الغايات الإيديولوجية و المرتبطة بالخيارات الفكرية للمؤلف، وحرص هذا الأخير على تحقيق هذه الغايات يملي عليه تبني مبدأ الانتقائية في كتابة المادة التاريخية وعلى هذا يمكن لسائل أن يسأل عن المقاصد التي تقف وراء الإضمار الذي مارسه ابن خلدون وغيره من المؤرخين في حق كثير من الحقائق والأحداث التاريخية، يحتاج الأمر هنا إلى أدوات معرفية أخرى تتجاوز موضوع السرد وتقنياته.

2.6 المكان:

إن تحديد الفضاء أو المكان في الكتابة التاريخية هو أمر ضروري، فالأصل في المؤرخ أن يولي العناية اللازمة للحدث التاريخي و يوثقه زمنيا ومكانيا، حيث يكون هذا الأخير واضح المعالم حتى أن بعض الأحداث التاريخية نسبت لأماكن وقوعها، ومن أمثلة ذكر الأماكن وتحديدها في الكتب التاريخية ما ورد في كتاب "فيه النكث المصرية": "أمر بقتل أبي محمد ابن شعيب وعلي بن مفلح وقد وصلا من عدن وعلى أيديهما مكاتبة من أهل عدن حين بلغه أن أهل عدن أساؤوا العشرة على مبهج افتخار السعداء حين توجه مع الوجيه بن شعيب إلى اليمن سنة إحدى وستين، فقلت لشاور إن الرجلين في منزلي من ثلاثة أيام وأنه لا سبيل إليهما فأمسك مليا، ثم قام ولم ينطق(...) وقال لهما الوداع والله لولا فلان لضربت رقابكما وقطعت ما بين الدولة وبين أهل عدن والزمني أن أترسل في الرسالة التي سار فيها حمائل إلى دمشق..."[20].

لكن أحيانا قد يتغافل المؤرخ عن ذكر مكان وقوع الأحداث إذا جهلت، فيتركه مفتوحا أو منفتحا ما يساهم في " خلق عالم خيالي محض "[21]، خال من صفة التاريخية، مثل هذا نجده في كتاب المروج في قصة أمية ابن الصلت حيث ورد ذكر الأماكن متخيلة غير محددة، أوردها صاحبها انزياحا من التاريخية إلى الأدبية، فقال المسعودي:" وقد ذكر جماعة من أهل المعرفة لأيام الناس وأخبار من سلف كإبن دأب والهيثم ابن عدي وأبي مخنف لوط بن يحى ومحمد ابن السائب (الكلبي) أن السبب في كتابة قريش وإستفتاحها في أول كتبها "بإسمك اللهم" وأن أمية ابن الصلت الثقفي خرج إلى الشام في نفر من ثقيف قريش في عير لهم، فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا واجتمعوا لعشائهم، إذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم، فحصبها بعضهم بشئ في وجهها فرجعت، وشدوا سفرتهم ثم قاموا فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم، فلما برزوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متكئة على عصا لها، فقالت: ما منعكم أن تطعموا رحيمة، الجارية المسكينة التي جاءتكم عشية؟ قالوا ومن أنت؟ قالت: أم العوام أو تمت منذ أعوام، أنا ورب العباد لتفرقن في البلاد، ثم ضربت بعصاها الأرض فأثارت بها الرمل،

وقالت: أطيلي إيابهم ونفري ركابهم، فوثبت الإبل فكأن على ذروة كل بعير منها شيطان ما نملك منها شئ، حتى افترقت في البوادي فجمعناها من آخر النهار إلى غد.

ولم نكد فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز فعادت بالعصا كفعلها أولا، وعادت بمقالتها: ما منعكم أن تطعموا رحيمة، الجارية اليتيمة؟ قالت: ألا أطيلي إيابهم ونفري ركابهم، فخرجت الإبل مانملك منها شيئا، فجمعناها من آخر النهار إلى غد.

ولم نكد فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز ففعلت مثل فعلتها في الأولى والثانية، فتفرقت الإبل وأمسينا في ليلة مقمرة ويئسنا من ظهورنا فقلنا لأمية بن الصلت: "أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك؟ فتوجه إلى ذلك الكثيب الذي كانت تأتي منه العجوز، حتى هبط من ناحية أخرى، ثم صعد كثيبا آخر حتى هبط منه، ثم رفعت له كنيسة فيها قنادل، وإذا برجل جالس أبيض الرأس واللحية، قال أمية: فلما وقفت عليه رفع رأسه إلي وقال: إنك لمتبوع قلت:أجل، قال: فمن أين يأتيك صاحبك؟ قلت: من أذني اليسرى، قال: فبأي يأمرك؟ قلت:السواد، قال: هذا خطب الجن كدت ولم تفعل، ولكن صاحب هذا الأمر يكلمه في أذنه اليمنى، وأحب الثياب إليه البياض، فما جاء بك وما حاجتك؟ فحدثته حديث العجوز قال: صدقت وليس بصادقة هي امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام، وإنها لن تزال تصنع ذلك بكم حتى تهلككم إن استطاعت، قال أمية: فما الحيلة؟ قال: اجمعوا ظهوركم فإذا جاءتكم ففعلت ما كانت تفعل فقولوا: سبعا من فوق وسبعا من أسفل باسمك اللهم فإنها لا تضركم.

فرجع أمية إلى أصحابه فأخبرهم بما قيل له، فجاءتهم ففعلت كما كانت تفعل، فقالوا سبعا من فوق وسبعا من أسفل باسمك اللهم، فلم تضرهم، فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت: عرفت صاحبكم، ليبيضن أعلاه وليسودن أسفله وسيروا، فلما أدركهم الصبح نظروا إلى أمية قد برص في عذاريه ورقبته وصدره واسود أسفله، فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث، فكان أمية أول من كتب من أهل مكة: "باسمك اللهم" إلى أن جاء الإسلام فرفع ذلك وكتب: "باسم الله الرحمان الرحيم"[22].

لم يحدد المسعودي المكان الذي جرت فيه الأحداث، "وهنا نلمس انزياحا من صفة التاريخية التي كان من المفترض أن تطغى على العمل إلى صفة الأدبية التي طغت على هذه القصة وغيرها من القصص والأخبار في كتاب المروج"[23].

3.6 الشخصيات:

هي العنصر الأساسي لأي خطاب سردي وهي دعامته فلا سرد دون شخصيات، وتعرف الشخصية أنها " أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة"[24]، وهي حاملة الأفكار والإيديولوجيات،"حيث تلعب الشخصية دورا رئيسيا ومهما في تجسيد فكرة الروائي، وهي من غير شك عنصر مؤثر في تسيير أحداث العمل الروائي"[25].

وللشخصية دور مهم في بناء الأحداث وتطورها فهي"قادرة على مالا يقدر عليه أي عنصر آخر من المشكلات السردية (...) إن قدرة الشخصية على تقمص الأدوار المختلفة التي يحملها الروائي يجعلها في وضع ممتاز حقا"[26].

وتنقسم الشخصية في الخطاب السردي حسب مشاركتها في الأحداث إلى رئيسية وثانوية، كما يمكن أن تكون واقعية أو متخيلة، لكن الأصل في الخطاب التاريخي أن تكون الشخصية واقعية على اعتبار أن التاريخ هو أحداث و وقائع تصور حقائق وقعت في الماضي ، وقد يلجأ المؤرخ لابتداع شخصيات تخييلية " تساعده في تفعيل الشخصيات التاريخية أولا، ولكي يقلص من الضغط الذي تمارسه الشخضيات التاريخية على السارد، كونها محددة بملامح ومعطيات لا يمكن للراوي تجاوزها، ونورد شخصية أبو الخيبري " في قصة حاتم طيء كنموذج خلق فيه المسعودي هذه الشخصية لتفعيل حركة السرد داخل متن قصة حاتم طيء" [27]

يقول المسعودي: "وحدث يحي بن عتاب والجوهري (قالا حدثنا علي قال) أنبأنا عبد الرحمان بن يحي المنذري عن أبي المنذر هشام الكلبي قال: حدثني أبو مسكين ابن جعفر بن محرز بن الوليد عن أبيه وكان مولى لأبي هريرة قال: سمعت محمد بن أبي هريرة يحدث قال: كان رجل يكنى أبا الخيبري مر في نفر من قومه بقبر حاتم طيء، فنزلوا قريبا منه فبات أبو الخيبري يناديه: أبا الجعد أقرنا أقرنا، فقال له قومه: مهلا ما تكلم من رمة بالية؟ قال:إن طيئا تزعم أنه لم ينزل أحد قط إلا قراه وناموا.

فلما أن كان في آخر الليل، قام أبو الخيبري مذعورا فزعا ينادي: وارحلتاه؟ فقال أصحابه: ما بالك؟ فقال:خرج حاتم من قبره بالسيف وأنا أنظر حتى عقر ناقتي، فقالوا: كذبت ونظروا إلى ناقته بين نوقهم منجدلة لا تنبعث فقالوا: قد والله قراك، فظلوا يأكلون من لحمها شواء وطبيخا حتى أصبحوا ثم أردفوه وانطلقوا سائرين، فإذا راكب بعير يقود آخر قد لحقهم فقال: أيكم أبو الخيبري؟ فقال أبو الخيبري: أنا ذاك، قال: أنا عدي بن حاتم وإن حاتما جاءني الليلة في النوم ونحن نزول وراء الجبل، فذكر شتمك إياه وأنه قرى براحلتك (...)"[28].

فنلاحظ أن المسعودي قد بدأ حكايته بـ "كان رجل يكنى أبا الخيبري في نفر من قومه"، فلم يذكر صفاته ولا ملامحه ولا نسبه ولا هوية قومه.

7.خاتمة:

بعد هذه الدراسة التطبيقية التي حاولنا فيها إبراز مواطن الأدبية والسردية في الخطاب التاريخي، توصلنا إلى نتائج أهمها:

- يعد التاريخ من أهم المراجع المعرفية التي يعتمدها الخطاب السردي خاصة الرواية.
- التعالق بين الخطاب التاريخي والخطاب السردي يؤدي إلى ميلاد جنس أدبي جديد يقوم على سردنة وأخيلة المادة التاريخية الحكائية ذات المرجعية الواقعية هو" التخيل التاريخي".

– إن مصطلح التخيل التاريخي جمع بين فعلين غالبا ما يبدوان متعارضين هما التأريخ والسرد، يتمثل وجه التعارض في أن الأول يسعى لجمع الأحداث والوقائع وتدوينها متحليا بالموضوعية بحثا عن الحقيقة المطلقة، أما الثاني فيسعى لخلق المتخيل متحليا بالذاتية المفرطة وباحثا عن الجمالية والفنية.

– إن توظيف تقنيات السرد في الخطاب التاريخي ساهم في شحنه بالحركية والأحاسيس والمواقف.

– كثيرا ما ساهمت اللغة بإمكاناتها التخييلية والتصويرية في العدول بالكتابة التاريخية إلى الكتابة الإبداعية.

– إن المؤرخ ليس روائيا ولا أديبا، يمتهن صناعة الكلمة والخطاب، إنه ناقل ومستنطق للتاريخ، وباحث عن الحقيقة التاريخية، لذلك فهو إذ يستخدم أدوات التخييل إنما هو يغامر بأهدافه ويعرضها للاستحالة ما لم يع حدوده في استخدامها.

– في حال استطاع المؤرخ أن يستخدم أدوات المتخيل في المكان المناسب وبالطريقة التي لا تعرض الحقيقة التاريخية للتزييف يكون قد ضمن قيمة إضافية لكتابته، ذلك أن التاريخ لا يخلو من فراغات واستفهامات لاسبيل إلى ملئها إلا باستحضار آليات تخييلية في طبيعتها مثل التخمين والاحتمال والافتراض بيد أن التخييل هنا يجب أن يكون مستندا إلى حقائق ووثائق تمنح تلك الافتراضات الشرعية.

8. الهوامش:

(1) أقلمون عبد السلام، الرواية والتاريخ، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2010، ص 24.

(2) فيصل دراج، تطور الرواية والرواية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، لبنان، ص 82.

(3)عبد الله ابراهيم ،التخيل التاريخي، السرد، والامبراطورية، والتجربة الاستعمارية،ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ،2011،ص 5.

(4) المرجع نفسه، ص 6.

(5) المرجع نفسه، ص ص 6 ،7.

(6) المرجع نفسه، ص 7.

(7) المرجع نفسه، ص 11.

(8) عبد العالي بوطيب، إشكالية الزمن في النص السردي، مجلة فصول، مج 12، ع 2، 1993، ص 3.

(9)voir vigne ericricoeur paul temps et recit comte rendu vingtieme siecle revue dhistoire 1984 pp 166-167

(10) محمد عز الدين النازي، الخطاب العربي الروائي الجديد، السرد والفضاء والتناص، دط، مكتبة الأمة، السعودية، 2008، ص47.

(11) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن السرد التبئير، ط 4، المركز الثقافي العربي، 2005، ص 144.

(12) عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 1381.

(13) المصدر نفسه، ص 449.

(14) أبو الحسن علي ابن الحسين ابن علي المسعودي، المصدر السابق، ص60.

(15) سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص 80.

(16) أسامة ابن منقذ، المصدر السابق، ص 162 .

(17) نجم الدين أبو محمد عمارة ابن أبي الحسن الحكمي اليمني، المصدر السابق، ص 74.

(18) أبو الحسن علي ابن الحسين ابن علي المسعودي، المصدر السابق، ص24.

(19) عبد الرحمان ابن خلدون، الخبرعن دولة التتر، تاريخ المغول من كتاب العبر، تح: أحمد عمراني، ط1، دار الفرابي، لبنان، 2013، ص ص 168، 169

(20) نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني،المصدر السابق،ص91

(21) لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، دط، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، 2002، ص 128.

(22) أبو الحسن علي ابن الحسين ابن علي المسعودي، المصدر السابق، ج 1، ص ص 48، 49.

(23) رزيق أحلام، إنفتاح السرد التاريخي على الأدبي(دراسة نقدية ثقافية في نمادج من مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي)، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، مجلة علوم اللغة العربية وأدابها، مج 13، ع 3، تاريخ الإيداع 2021/4/1، تاريخ القبول: 2021/7/18، تاريخ النشر 2021/11/4، ص 170.

(24) شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، دط، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص 43.

(25) نصر الدين محمد، الشخصية في العمل الروائي، مجلة فيصل، دار الفيصل الثقافي للطباعة العربية السعودية 37، جوان 1980، ص 20.

(26) عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنية السرد، دط، عالم المعرفة، الكويت، 1999، ص 79.

(27) زريق أحلام، المرجع السابق، ص 170.

(28) أبو الحسن علي ابن الحسين ابن علي المسعودي، المصدر السابق، ج 2، ص ص 52، 53.

8. قائمة المراجع:

1. أقلمون عبد السلام، الرواية والتاريخ، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2010.

2. رزيق أحلام، إنفتاح السرد التاريخي على الأدبي(دراسة نقدية ثقافية في نمادج من مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي)، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، مجلة علوم اللغة العربية وأدابها، مج 13، ع 3، تاريخ الإيداع 2021/4/1، تاريخ القبول: 2021/7/18، تاريخ النشر 2021/11/4.

3. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن السرد التبئير، ط 4، المركز الثقافي العربي، 2005.

4. سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

5. شريبط أحمد شريبط، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، دط، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009.

6. عبد الرحمان ابن خلدون، الخبرعن دولة التتر، تاريخ المغول من كتاب العبر، تح: أحمد عمراني، ط1، دار الفرابي، لبنان، 2013.

7. عبد العالي بوطيب، إشكالية الزمن في النص السردي، مجلة فصول، مج 12، ع 2، 1993.

8. عبد الله ابراهيم ،التخيل التاريخي، السرد، والامبراطورية، والتجربة الاستعمارية،ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ،2011.

9. عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنية السرد، دط، عالم المعرفة، الكويت، 1999.

10. فيصل دراج، تطور الرواية والرواية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، لبنان.

11. لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، دط، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار، 2002.

12. محمد عز الدين النازي، الخطاب العربي الروائي الجديد، السرد والفضاء والتناص، دط، مكتبة الأمة، السعودية، 2008.

13. نصر الدين محمد، الشخصية في العمل الروائي، مجلة فيصل، دار الفيصل الثقافي للطباعة العربية السعودية 37، جوان 1980.

14. voir vigne ericricoeur paul temps et recit comte rendu vingtieme siecle revue dhistoire 1984.